من التاريخ الإسلامي

ليلة الوداع

للأستاذ علي الطنطاوي

وفي نهار الاثنين ١٦ جمادى الأولى سنة ٧٣ للهجرة ...

وخلف مكة وهي ثكلى ملتاعة ، محطمة القلب ، مخلعة الأضلاع ، قد غرقت في دماء أبنائها الذين ضربتهم يد الدهر ففرقت جمعهم ، وشتت شملهم ، فراحوا فريق مصرّعون على أرض الحرم . . . وفريق تحت رايات أميّة قد أرمضتهم هذه الحرب الطويلة التي حملوا عناءها ، وقاسوا لأواءها سبعة أشهر لم تدع لهم أخضر ولا يابساً ، فتسللوا من مكة لواذاً ، ثم تسلقوا هذه الجلاميد التي انتشرت عليها جيوش أمية الغازية ، فاستسلموا إليها وأخذوا لأنفسهم أماناً لأنهم كانوا عوناً لها وجنداً فيها ؛ وفريق أقاموا على الولاء لابن الزبير ، يذكرون من مات من أهليهم فيغصّون بالماء حزناً وألماً . ويذكرون من فرّ من إخوانهم فيوارون وجوههم حياء وخجلاً ، ثم إنهم ينتظرون الموت بين كل لحظة وأختها ، ويعيشون خائفين في مقام ابراهيم (ومن دخله كان آمناً !)

وألقى الليل غلائله السود على هذه المدينة التي عضتها الحرب بنابها وأصابتها بأوصابها ، فباتت تتنفس الصعداء من شدّة يوم قاس عبوس تحالفت فيه الطبيعة العاتية والبشرية الطاغية ، على حرب هذا البلد الحرام ، فلم يكن ينجو من حجارة المنجنيق إلا إلى شر الصواعق ، فكأن الطبيعة قد شمرت عن ساقها للقتال ، فهي ترمي المهاجمين والمدافعين والآمنين من صواعقها ورجومها بشواظ من نار تصيب به الدور والمنازل فتدعها قاعاً صفصفاً كأن لم تغن بالأمس .

والحجاج ما ينفك مجالداً مقارعاً يقذف بأحجار منجنيقه وجنادله بيت الله فيهدم جدران بيت الله ، ويرمي بيوت الناس فيهلك من بقي فيها من أشياخ عجّز لا قبل لهم بالحرب وأهوالها ، وأطفال برءاء لا يد لهم في جرائرها وأوزارها ، فيختلط عويلهم وصراخهم بهزيم الرعود وزئير الطبيعة ، ثم تضيع هذه الموسيقى المروّعة في جلبة الانهدام ، ويخفى الغبار الثائر حول المنازل المهدودة هذا المشهد المرعب لحظة من زمان ، ثم ينجلي فإذا التراب قد حوى كل شيء ، وإذا المدينة العامرة المقدسة مقبرة من القابر !

وامتد رواق الليل فنامت الطبيعة وكفت عن هياجها وجنونها ، وصفت السماء وأطلّ البدر من عليائها ونامت الحرب . وكانت يومئذ طفلة لم تستكمل ما تراه من شراستها ، ولم تتم أنيابها ولم يستطر شرّها كما استطار اليوم فغدت لا تنام ولا تنيم ، وكان في نفوس المتحاربين شرف ووفاء فاستراحوا وأراحوا ، ونام هؤلاء الأبطال المدافعون نوم الأسد في آجامها كما نام هذا الجيش الجرّار الذي امتد زحفه حتى ساقب أبواب الحرم .. سكن الليل وعم شوارع مكة المقفرة الخالية حيث كان جيش ابن الزبير يروح ويغدو بطبوله ورواياته ، فطوت كف الردى

راياته وطبوله . وهذه الأوعار الصم التى انتشر عليها جيش الحجاج بكبريائه وعنفوانه ... عمها كلها صمت عميق وهدوء شامل ، فلا تسمع فى ثناياه إلا صيحة حارس ينتقل شبحه خلال السواد ، أو صرخة جريح معذب ، ثم يعود السكون

* * *

نامت العيون ، واستسلم المتحاربون إلى سبات أعمى لا تبصر فيه مقلة حلم ، وأراق القمر عذوبته وهدوءه على هذه الجبال فبدت جميلة فتانة ، فجفا فراشه سيدُ الموقف ، وبطل الجيوش الظفرة وقائدها ، وانسلّ في خفية كيلا يشعر حرسه وأعوانه ، فجلس على باب الفسطاط يتأمل هذه السماء الصافية ، ويحدّق فى النجوم المتوقدة المتلألئة ، فتفتح عليه باب الذكرى ، فيلج منه سالفات أيامه فيعيش فيها وينسم أريجها ... وحملته هذه النجوم إلى ذكرى بعيدة ، فأحس بأنها عزيزة عليه محببة إليه ، فطفق يتأمل صورة تلك الليلة [1] التى قضاها فى الصحراء وحيداً فريداً قد هجر بلده وحياته ، ليقدم على بلد لا يعرفه وحياة لا عهد له بها ، ويستعيد خواطره التى كانت تعتاج في نفسه ، وذهب إلى أبعد من ذلك فذكر أيامه فى تلك الأعالى الباذخة ، حين كان معلماً لصبيان الطائف ، وأمانيه التى لم يكن يأنس إلا إليها والتى يحاول أبداً أن يستشف خيالها من وراء حجاب الغيب ... واستمرأ بقايا تلك اللذة التى أحس بها وهو خارج من دار (مستشار الدولة) روح بن زنباع وقد قلده شارة الشرطة ، فكانت عنده أكبر من شارة الخلافة ... أين ذلك الشرطى من قائد الخميس العرمرم الذى ترك جنات الشام الألفاف وسهوله الفيح ، وأبى أن يقطف ثمرة النصر وأزاهر المجد إلا من جلاميد مكة وصخورها ، فأمّ زحفه رءوس الجبال ، ثم هبط نحو مكة ، يستذرى براية الظفر ، حتى امتد زحفه هذا الذى كان يحسبه مجيداً إلى أبواب الحرم ...

وألقى نظرة القائد الشاب (ابن السبع والعشرين) على الحرم فرأى الكعبة ، وقد أضاءها القمر بشعاعه الكابى ، فبدت مهدّمة مصدّعة الجدران رهيبة ، فراعه ذلك وأخافه ، وعراه ارتجاف شديد هزّ كيانه كله ، فعاف ذكرياته وأعرض عن المجد والأمانى ، ولم يبق فى فكره إلا صورة بيت الله المهدّم تظل ماثلة له بعد أن أغمض عينيه عنها ، فيحس بأنها تثقل على قلبه حتى لتكاد تسحقه سحقاً ؛ ويكبر هذا الذى أقدم عليه وتملأ نفسه خشية الله ، فيندم ويشتد به الندم ... ثم يذكر وعده الذى وعده للخليفة ، أن يقضى على ابن الزبير . ويعيد إلى الدولة سلامتها ووحدتها ، ويشعره جلال هذه الغاية وسموّها استصغار ما أتى ، ويذهب يلتمس لنفسه المعاذير

أليست وحدة المسلمين وسلامة دولتهم دعامة حياتهم ورأس دينهم الذي قام على توحيد الخالق ، ووحدة المؤمنين ؟ أليس ضمان هذه الوحدة من واجبات الخليفة ؟ وما ذنبه هو إذا أمره عبد الملك بضرب الكعبة لتحقيق الوحدة ، وما هو إلاّ جندي فى طاعة عبد الملك ؟ بل ما ذنب عبد الملك وهو أمير المؤمنين المسئول عن مصالح المسلمين وسلامة دولتهم ؟ أيدع المملكة شطرين يعبث فيها المفسدون ويهلكها الخلف ؟ وأى جسم يعيش إذا انقسم جسمين ، وغدا قطعتين ؟ أوليس على عبد الملك أن ينقذ المسلمين من هذا الخلاف ولو دفع ثمنه حياة ابن الزبير وسلامة حصونه وقلاعه ؟ فما ذنب عبد الملك

(١) راجع قصة (هجرة معلم) فى العدد الممتاز من الرسالة

إذا اتخذ ابن الزبير بيت الله حصناً له واحتمى به ، واستغل حرمته ؟ ... أمن حق البيت الحرام على عبد الملك أن يدعه آمناً فى ظله ، يدّعى مُلكا وينشر راية ويتخذ جيشاً ، فيلتقى فى مشعر الحج ملكان مسلمان ، ورايتان وجيشان ، ويأبى الله والاسلام إلا راية واحدة لجيش واحد يسيره خليفة واحد ؟ أولم يكن أخلق بابن الزبير لو جنب بيت الله أوحال الدنيا وأوضار المطامع وخرج بجيشه إلى الحلّ ؟

وانطلق القائد الشاب يفكر فى ابن الزبير وعبد الملك ، ويعود به الفكر إلى رحلته الأولى يوم صافح سمعه للمرة الأولى اسم ابن الزبير ، فإذا هو اسم ضخم مجلجل وإذا هو ينطوى على السيادة والظفر ، والملك الواسع الذي يظل ثلاثة أرباع البلاد الاسلامية ، وإذا اسم عبدالملك ضاو هزيل ، فمازال هذا يضخم ويعظم ، وما فتئ ذاك يهزل ويضؤل ، حتى انتزع عبد الملك الذى كان قابعاً فى زاوية قصره فى الشام ينتظر أن يغلبه عليه ابن الزبير — انتزع العراقين والحجاز ، ونازل عبد الله فى قرارة داره ودارة ملكه . أليس هذا دليلاً قاطعاً على أن ابن مروان أحق بالخلافة من ابن الزبير ، وأقدر عليها وأولى بها ؟

وأفلتت منه نظرة فوقعت على الكعبة ، فأعادت صورتها الرهيبة إلى صدره ، وأحس بوجل شديد ؛ فذكر تهيّبه الإقبال عليها ، إذ كانت مثابة الأمن ودار السلام ، منذ الزمان الذى يضيع أوله فى طفولة البشرية ؛ وذكر كيف فزع جنده وأحجموا ، فشد من عزائمهم ، وهوّن الأمر عليهم ؛ وكيف عبست السماء وبسرت حين شرعوا بتسديد الرماية إلى صدر الكعبة ، وألقت برجومها وصواعقها ، فقتلت منهم مقتلة ، فارتدوا وامتنعوا ، وظنوا أن الله مهلكهم كما أهلك الأمم من قبلهم ، فانصدعت قلوبهم وطارت نفوسهم شعاعاً ، فقام فيهم يطمئنهم ويهديهم :

— (أنا ابن تهامة ، وهذه صواعقها [1]) فلا تخافوا ولا تراعوا

سنة الله التى لا تبديل لها ، وقوانينه فى كونه لا تعنيها أمور البشر ولا تبدلها حوادث الأرض ، وما قيمة جند الشام حتى يدع الفلك من أجلهم سيره ، وتخرج الطبيعة عن سننها وتخالف طريقها ؟ وانطلق يحدثهم حديث رسول الله ومعلم العالم حين استأثر الله بابنه إبراهيم فكسفت الشمس فظنوا أنها كسفت لموته ، فنبأهم أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يعنيهما موت أحد ولا حياته ...

فاطمأن الجند وعادوا إلى تسديد الرماية وضرب الكعبة ، فعادت السماء إلى زمجرتها وزئيرها ، وانقضت صواعقها ، ولكنها أصابت من جند ابن الزبير مثل الذى أصابت من عسكر الشام ؛ فأمن الجند وأقبلوا يوالون قذف الحجارة ...

إنه لم يضرب الكعبة على أنها بيت الله ، ولكن ضربها على أنها قلعة من قلاع ابن الزبير ؛ ولم يقدم مكة فاتحاً ، ولكن قدمها حاجّاً محرماً ؛ وحج بالناس ولكنه لم يطف . . . ولم يكن له إلا الوحدة الإسلامية غاية ، فهو يعلم أن المسلمين كرجل واحد ، فأي رجل هذا الذى له رأسان .. ؟ ولقد نهاه فقيه العصر وإمامه (عبد الله بن عمر) أن يضرب الكعبة فيؤذى الطائفين بها ويعطل مناسك الحج ، وشدد عليه فى النهى ، فأطاع وامتنع وترك الناس وحجهم ، حتى إذا استكملوا مناسكه وفرغوا من عبادتهم ، نادى فيهم بالرحيل إلى بلدانهم وعاد يحارب ابن الزبير ...

(١) هذه الجملة من التاريخ

وسكن الحجّاج إلى هذه النتيجة التي انتهى إليها ، واقتنع بأنه لم يأت منكراً ... فعاد يتأمل هذه النجوم الصافية ، وهو عازم على بناء الكعبة ، وسد هذا الخرق الذى خرقه ، وإصلاح ما أفسدته الحرب ؛ وراح يحدق فى القمم الشاهقة التى تلوح له عن بعد ذائبة أعاليها فى الشعاع الفاتن الذى يسيل من صفحة القمر ... فذكرته كرة أخرى بيته ومدرسته وقريته الصغيرة فأحس كأن قلبه ينازعه إلى أيامه التى سلخهن فيها ...

— سلاماً أيتها الأرض الضائعة فى طريق السماء ... لقد وفيت لك بنذرى ، فقدت إليك المجد ووهبت لاسمك الظفر . وخرجت منك معلم صبيان ولكنى عدت إليك قائد الجيش العرمرم ، فثبّتُّ اسمك على صفحات البطولة ، فلا يذكر التاريخ عودة الوحدة الإسلامية إلا ذكر معها (الطائف) !

ثم استغرق فى تأمل عميق ...

* * *

فى تلك الساعة كانت تهدف فى طرقات مكة الخالية ، عجوز طويلة ، لا تبالى هذا الظلام الثقيل الذي يحف بها ، لأن عينيها المنطفئتين قد ألفتا هذا الظلام منذ أمد طويل ... وكانت تؤم منزلاً من هذه المنازل المقفرة ، فتمضى إليه قُدُماً كأنما هى قد ألفت طريقه ، وحفظته بذاكرة قديمها لكثرة ما تتردد عليه فى الصباح والمساء ، فهى تتخطى هذه الأنقاض ، وتدور حول الجدر ، لم تقف حتى غيبتها مداخل المنزل المهجور ، فقبعت فى زاوية من زواياه جامدة لا تتحرك ولا تهمس ، كأنما هى بعض أثاثه القديم الهرم الذى تركه أصحابه زهداً فيه ... وجعلت تجيل عينيها الهامدتين فى أرجاء عالم مجهول ، فيبدو لها مترعاً بالألوان الفتانة ، زاخراً بالصور البارعة ، فلا تمل التحديق فيه والتجوال فى أرجائه ، تفتش عن هذه الفتاة التى عرفتها فى سالفات أيامها ، فلا تلبث أن تجتلى خيالها فتطمئن إليه وتجد فيه صباية نفسها وبلغة أمانيها ... وترى هذه الفتاة وقد أهديت إلى بعلها الذي خلا كيسه من المال ولكن نفسه فاضت بالحب ، فشاركته حبه وفقره ، وأقامت من نفسها أنيساً لنفسه وخادماً لبيته ، وسائساً لفرسه ، تلتقط لها النوى ثم تدقه ، وهى سعيدة هانئة تعيش لبيتها وزوجها الذى تنهل السعادة من نظراته وكلماته وتقبس الهناءة من حبه وإخلاصه . فاستراح قلبها إلى هذا الخيال الذى ترى ، وشعرت كأن دم الشباب قد عاد يجري فى عروقها بحرارته وتوثبه وفورانه ، وأحست بالنور قد عاد يضيء فى عينيها ؛ فاستقرت على شفتيها بسمة عريضة ، طغت صورتها على جبينها المجعد فأومض فيه بريق من السعادة خاطف ورجع إلى وجنتيها ظل من حمرة الشباب الآفل ، حتى لو أن إنساناً رآها فى تلك الساعة لما رأى عجوزاً شمطاء عمياء ، ولكن فتاة فى السابعة عشرة ...

ونفضت عنها العجوز غبار السنين المائة ، وانطلقت تعيش فى بقايا ليلة من ليالى زواجها الحافلة بالغرام والنبل والسعادة ، فتصغى إلى أغانى الحب تبعث همساً من فم ذلك الزوج المعمود ، وتذوق بين ثناياها حلاوة قبلاته المسولة وتسمع بأذنيها وسوستها الناعمة . وتبالغ فى التخيل ، فتمد يديها تعانقه وتخفى وجهها فى صدره العريض وتلقى برأسها على قلبه الكبير الخافق الذى يخفق أبداً للحب والمجد والايمان ... ولكن برودة الحجر الذى ألقت عليه رأسها أطفأت جذوة أحلامها ، وردتها إلى حاضرها ، فاذا هو ينشر أكفان الموت على مسراتها ومباهج حياتها الماضية فتنسى كيف استقادت إليها

السعادة كاملة على يد هذا الزوج الذى تبعثه الدنيا حين تبع دين محمد فغدا يحمل على ألف فرس فى سبيل الله بعد أن كان ماله كله فرساً تعلفها زوجه النوى . وتغيب صور هذا الماضى فى الليل السرمدى الذى غمر حياتها وأترعها بالآلام والأوجاع فتمنت لو أنها ماتت وهى بنت الخليفة العبقرى ، الذى صحب رسول الله وخلفه فى أمته . ووقف وحده حين كانت الردة فى وجه الناس كلهم . ثم ظفر بهم وساق المرتدين عن دين محمد ليقاتلوا في الشام والعراق تحت راية محمد . . . أو لو ماتت وهي زوج البطل الذى ملأ حياته بطولة وشرفاً ومجداً ثم ذهب فمات فى ساحة الشرف والبطولة والمجد ، أو لو ماتت وهى أم الخليفة الذى عنت له الحجاز والجزيرة والعراق وخراسان . . . وكاد يدخل دمشق مظفراً منصوراً ... فضاع منه كل شيء ، حتى كادت أمية تدخل عليه مكة مظفرة منصورة واستيأست من طلوع الفجر الذى يزيح ظلمة هذا الليل فانطلقت تناجى الموت وتدعوه بأحب الأسماء وأجملها ، وأذكرها الموت أحبتها الذين طواهم فى أحشائه ، فاشتهت قرب الأحبة — وكان من أقوى رغباتها فى هذه الليلة أن تقف على قبر أبيها الذى يجاور أشرف بقعة فى ملكوت الله الواسع فى الغرفة الصغيرة التى بنيت من الحجر والطين وسعف النخل فى العشايا الأولى لاستقرار الاسلام فى يثرب ، فكانت مقر أختها الصغيرة ، أحب زوجات الرسول إليه وأفضل أمهات المؤمنين وعالمة النساء ومعلمة الرجال . ثم كانت مهبط الوحى وصلة الأرض بالسماء ، ثم كانت دار الحكومة ، فيها نظمت خطط الحروب ، وأعدت قوائين المجتمع ، وعقدت مجالس الشورى ، ومنها خرجت الكتب إلى شيرويه ملك الفرس كسرى شاهنشاه .. وهرقليوس قاهر كسرى وسيد الدنيا في عصره ، ثم خرجت الجيوش لتمحو ملك شاهنشاه ، وتخلف سيد الدنيا فى أرضه وتعود بأسلابه ، وفيها عاش النبي صلى الله عليه وسلم حياته حتى إذا مات دفن فيها . ثم أغلق بابها لا إلى سنة ولا إلى عشر ولكن إلى ... يوم القيامة . وكان من أمتع أمانيها هذه الليلة أن تقف على قبر زوجها الماثل فى آخر البادية . في الزاوية التى تلتقى فيها بادية العرب بسواد العراق ، ببساتين العجم ... بالبحر ! فتجدد بزيارته عهد الماضى ...

* * *

وكانت تتناهى إليها بين كل آونة وأخرى صرخة من صرخات الحراس ، أو أنة من أنات الجرحى . فتردها إلى وعيها فتتأمل هذه الشماعة الواحدة التى بقيت لها من شمس حياتها الآفلة ابنها عبد الله الذى تجد فيه عبق غرامها بزوجها ، وعطر الامجاد التى عاشت فيها والمعارك النبيلة التى شهدتها ، وتذكر فيه تاريخاً طويلا تلتقى حوادثه الكبيرة بهذا التاريخ الصغير الذى تحفظه لابنها ؛ وتنقلها الذكرى إلى هذا التاريخ ... فاذا هى فى دنيا قريش ، وإذا قريش فى حيرة وقلق . قد خابت وفشلت فى رد هذا السيل الآتى بأكفها الضعيفة . ورأت الاسلام ينتشر ويمتد ولا يثبت شيء أمامه فائتمرت بالنبى تقتله ... ولكنها لم تجده في بيته ، ولا تعلم أين هو ... لا يعلم أين هو إلا رجل فى مكة وامرأة . أما الرجل فعلى ، وأما المرأة فأسماء ... يا لروعة هذه الذكريات !

لقد كانت فى بيتها تعد اللحم لتحمله إلى رسول الله (فان رسول الله يعجبه اللحم [1]) وإذا بالملأ من قريش يدخلون عليها ، وهم يرعدون ويبرقون ، يزهون بكبريائهم الفارغة ، وعنفواتهم المزيف وثيابهم الزاهية

(١) جملة من التاريخ

فقال لها أبو جهل بلهجة حاول أن يجعلها فخمة عالية ، ولكنها جاءت أقرب إلى التصنع والاضحاك :

— أين أبوك ؟

— وما يدريني أين أبي ؟ لا أعلم ؟

فلم يترفع هذا السيد الذى عجز عن ردّ محمد ، عن أن يرفع يده على امرأة ... لقد لطمها لطمة أطارت قرطها ... ومدت العجوز يدها تتلمس أذنها على غير شعور منها ، ومسّت بيدها بطنها ، فقد كانت يومئذ حاملاً ... يالبطولة هذا السيد القرشي الذى يضرب امرأة حاملاً !

ثم استدار الشهد فإذا هى قد انطلقت من دنيا قريش الضيقة المحصورة ، إلى دنيا محمد الواسعة الفسيحة . لقد هاجرت تقطع الصحارى والقفار ، حتى أشرفت على نخيل المدينة ، فوقفت على هذه الجنان الطاهرة ، الذى أسس فيها أول مسجد بنى على تقوى ، فسمعت وحدها هذا النشيد العلوى ، الذي أصغت إليه الدنيا كلها من بعد ، والذى يتردد اليوم خمس مرات فى كل نهار ، تتجاوب به المنائر فى كافة أرجاء الأرض ...

وهنالك وسط هذا النشيد الذى يتألف من كلمتين اثنتين لم تعرف ألسنة البشر أقوى منهما هديراً ، وأشد فى النفس تأثيراً ، هما : « الله أكبر » ! صاح البشير أن (أول مولود فى الإسلام) قد استهل ، فانشرحت به صدور المسلمين حتى كأن كلّ واحد منهم كان أباه ، وأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فحنكه وبارك عليه ، ودعا له ...

وتمثلت عبد الله وهو صبي يبايع رسول الله . ورسول الله يبتسم له ابتسامة تفيض بالحب والرضا ..

ورأته وقد شبّ حتى صار يلعب مع الصبيان فى الطرقات . وإنه لفى لعبه وإذا بعمر القوىّ المهيب يمرّ فيفرّ الصبية ويتوارون ، ويبقى عبد الله واقفاً ..

— لِمَ لم تفرّ كما فروا ؟

— ولِمَ أفرّ وما أنت ظالم فأخشى ظلمك ، ولا أنا مذنب فأرهب عدلك ؟

فيعجب به عمر ، ويكبر جرأته وبلاغته ...

ثم تبصره وقد علا ، واستعلن أمره ، وضخم سلطانه ، فانقادت إليه الأمانىّ طيعة ، وتبعته الدنيا خاضعة ... ثم انهار هذا كله ... ثم انهار هذا كله ...

وراحت العجوز تحدّق بعينيها اللتين حرمتا النور فى أفق مجهول ، وتفكر فى غير وعى ، فقادها الفكر إلى دنيا تحبها وتألفها ، فإذا هى ترى كرة ثانية بداية هذا الصباح الذى غمر الكون ضوؤه ، وغسلت أنواره الأرض من أرجاس ليل طويل ماتت فى ظلامه الفضائل والمُثل . . . وتفكر فى قوة هذه الرسالة التي انتصرت على العالم كله ... وترى حاضرها الممض فتشجى وتتألم . ما أسرع ما نسى الناس هذه المبادئ وأجدبت نفوسهم منها ، وهذه أصلاد حراء ، وهذه جلاميد ثور ، لا تزال مخضبة مخضرة ... أفتكون هذه الحجارة وهذه الجلامد أوفى وأحفظ من قلوب البشر ؟ وإذا نسى الناس أفلا تذكرهم هذه الجبال الشاهقة التى شهدت عزلة محمد وإيواءه إليها ليالى بطولها يفكر فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، ويفتش وراء مظاهر المادة عن مبدع المادة ... ثم شهدت منبثق الوحى ، وأشرف عليها هذا الفجر فأضاء جنادلها وصخورها ، قبل أن تسطع أنواره فى السهول والقرى . وسمعته وآمنت به قبل أن تسمعه ، هذه المدائن العظيمة المنثورة فى الأرض ، أولا تذكرهم ساحة الحرم ... ومثلت لها (حين ذكرت ساحة الحرم) الكعبة

المهدمة ، فهالها أن يعبث المسلمون بحرمة الكعبة وهي التي كان المشركون على جهالتهم وكفرهم ، أكثر لها إجلالاً ، وأشد احتراماً ، وصبّت سخطها على ابنها وعلى الأمويين جميعاً

أيستحلون البلد الحرام ، في الشهر الحرام ، وينسون مبادئ الرسول ولما يمض على وفاته إلا ثلاث وستون سنة وينقضون عرى الأخوّة بينهم ، ويقاتل بعضهم بعضاً في بطن مكة ؟ ولِمَ ؟ أولم يبق في الأرض ظالمون ولا طغاة يقاتلونهم ؟ أينفض المسلمون أيديهم من هذا الإرث العظيم ، ويهملونه حتى يبدو في عيونهم مجدباً ، وهو الذي بلغ من خصبه أن أترع أيام البشرية الماضية بالحياة ، وهو كفيل بأن يغمر أيامها الباقيات حياة ومجداً وفضيلة ؟

وآلمها من ضياع هذه المبادئ أكثر مما آلمها من خذلان ابنها وضياع عرشه ، بل هي قد نسيت ابنها ، ونسيت هذا الملك الذي رتع في بحبوحته تسعة أعوام جاء يتجرع الآن مرارتها ، ونسيت ماضيها الأفل ، بل لقد نسيت نفسها وذهبت تفكر فيما هو أعز عليها من حاضرها وماضيها ، وابنها ونفسها ، في هذا المبدأ الذي أخلصت له ، إنه لا ينتصر هذا المبدأ وعلى الأمة واليان يصطرعان ويقتتلان ، فلا بدّ من ذهاب أحدهما ، فاذا لم يذهب عبد الملك فليكن ابنها هو الذي يذهب ولتشتر حياة الأمة بحياة ابنها ...

وكان عزماً خطيراً ، وكانت فكرة هائلة يرتجف لها أقوى القلوب ، ولكن قلب أسماء الذي يحمل قسطه من الإرث الأخلاقي الذي صهرته شمس هذه البلاد في الألوف المؤلفة من السنين وأنضجه الاسلام وهذبه لم يرتجف ولم يخف ... كان همها أن تستريح هذه البلاد المقدسة ليلة آمنة — إثر نهار ملئ بالخطوب لتستيقظ مع الفجر قوية نشيطة . فتفيء إلى ظلال وحدة هانئة تستجم فيها ، وتفرغ لنفسها لتفرغ من بعد لأعدائها ... ولكن العجوز عقلت لحظة عن عواطفها التي خنقتها في صدرها ، فانطلقت صارخة صاخبة ، فتصورت العجوز نفسها بعد عبد الله فلم تطق أن تتصور ... وعادت إليها أنوثتها فعظم عليها أن تفرط بولدها الحبيب وهي على عتبة الموت وهو عمادها وعونها ، وحاضرها ومستقبلها وهو كل شيء لها ، وعادت تعرض ذكرياته مذ كان طفلاً إلى أن غدا شيخاً ، فتحسّ أن أمانيها كلها تختصرها ساعة تضم فيها ابنها إلى صدرها ، ثم تنسى نفسها وهي بين ذراعيه ، حتى تسلم الروح ، إنه حياتها وهو كل شيء لها ... وراحت تبكي بعينيها المنطفئتين بكاء موجعاً

* * *

وفي تلك الساعة كان في الحرم طائفة من الناس تحت علم منصوب في ظل الكعبة ، أولئك هم بقية هذا الجيش اللجب الذي كان منتشراً بين أقصى خراسان والبحر الأحمر ، وهذا هو العلم الذي خفق على هذه البلدان تسعة أعوام كاملات ... وليس أروع من الجيش القوي الظافر الذي يسدّ منافذ الفضاء ، ويحجب الشمس ، وتعنو له الشوامخ الراسيات ، وتميد بثقله الأرض ، إلا هذه الحفنة من الرجال الأشداء الصابرين ، الذين تخيرتهم شجاعتهم وعبقريتهم ، فكانوا بغية السيف ، وطرائد الموت ، ثم آثروا الموت أجاداً على الاستسلام والهوان ، وتلك هي حال هذه الطائفة من الناس

وكان في الجمع شيخ مستند إلى جدار الكعبة ، تومض شعوره البيض في شعاع القمر ، يفكر ، أو هو يبدو كالمفكر على حين يتجرع مرارة خيبة

قائلة ، ويحس من حوله زمهريراً بارداً ، فكان بحاجة إلى صدر دافئ ، يقبس من حرارته الحياة والأمل ، ولقد كان شيخاً فى الثمانين ، ولكنه لا يزال حيال أمه ذلك الطفل الذى يتمرغ فى أحضانها ثم يضطجع فيها ويرفع وجهه الصغير إلى وجهها ويقطف بعينيه ثمرات الحب الحلوة من عينيها الوادعتين ، ويبعث أصابعه تعبث بوجهها وشعرها ...

وملأت نفس هذا الشيخ صورة أمه ، فنسى اليوم العصيب ، وغفل عن تصور النصر الذى أفلت منه كما يفلت الطائر الجميل من قفصه ، ثم يوغل فى مسارب السماء ، وخيبته التى جعلت حياته سوداء فارغة كظلام الليل ، ولم يعد يفكر إلا فى هذه الصورة التى أعارته من بهائها وسموها جناحين طار بهما إلى أيامه الخوالى فتغلغل فى رحابها الواسعة ...

... لم يبق له من صورة هذا الماضى العظيم — من عالم أبى بكر والزبير — إلا خط واحد ضعيف كاب ، يوشك أن تعدو عليه الأيام فتمحوه اليوم أو غداً ، لم يبق إلا ذات النطاقين أمه ، أسماء العظيمة التى كانت تاريخاً حيًا ، وكانت الفضيلة المجسّدة ، فانطلق إليها يودعها قبل أن يموت ، وكان الموت الشريف أجمل أمنية لهذا الشيخ البطل الذى خسر الملك والجيش ولكنه لم يخسر الشرف ولا العبقرية ؛ بيد أن هذا الشيخ يخشى أن يدع هذه العجوز تحمل معها آلام الثكل والوحدة ، حتى تبلغ بها قبرها القريب ... فكيف السبيل إلى إكراهها على التسليم به ، والرضا بموته ؟

* * *

وقام الشيخ من مجلسه يسلك هذه الطرق الموحشة التى سلكتها أمه فى الهزيع الأول من هذا الليل ، فلم يقف فى طريقه على الأطلال ، ولم يثره مشهد الملك الضائع ، لأن أفكاره كلها قد تعلقت بأمه ، فهو يحب أن يصل إليها ، فيمضى مسرعاً ، حتى إذا دنا من هذا المنزل المظلم الموحش تباطأ فى سيره ، حتى إذا بلغ بابه تهيب الدخول عليها وأحس بالعجز عن مواجهتها بعزمه ، وهو الذى لم يحس العجز عن مقابلة الخميس العرمرم ، ولم يشعر بالضعف عند مجابهة الشدائد والخطوب ، فوقف وأطال الوقوف ، وتقاذفته الأفكار حتى أحس كأن رأسه خلية نحل ... كيف يقول لها : دعينى أذهب إلى الموت ؟ وكيف يملك قلبه أن يتخاذل ويضعف أمام بكائها وتوسلها إليه أن يبقى ، أن يبقى إلى جانبها فى أيامها الأخيرة ... ؟

كانت الأفكار تصطرع فى رأسه ، وهو هادئ ساكن لا يبدى حراكا ، قد تعلق بصره بهذه العجوز القابعة فى الزاوية ينيرها شعاع ضئيل من أشعة القمر يسقط عليها من خروق السقف المتهدم ، وكانت أذنه مرهفة مائلة إليها فسمعها تردد اسمه فى خفوت ، بلهجة يقطر منها الحب والشوق واليأس والحزن ، فلم يتمالك نفسه هذا الشيخ أن صاح : أمى ! وألقى بنفسه بين ذراعيها ، فرغ لحيته بوجهها ، وخلط أنفاسه بأنفاسها ونفسه بنفسها ، وغابا معاً فى حلم ممتع نشوان ...

ثم تنبهت العجوز ، وذكرت نذرها الذى نذرته للوحدة الإسلامية وعزمها الذى اعتزمته ، فخلصت من عناقه برفق وقالت له :

— ما جاء بك ؟

فحار فى جوابها ولم يدر كيف يعلن عزمه على الموت ، ثم آثر أن يرى ما عندها وقال لها :

— (يا أماه ، قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، ولم يبق معى إلا اليسير من أصحابى ومن

ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟ [١])

— أهذا ما جئت لأجله ؟ .. أجشمت نفسك عناء المسير فوق أنقاض المدينة المقدسة التى هدمتها وتركتها أطلالاً لتقول لى إنك جبنت وفقدت حميتك وشجاعتك ؟ أجئت تحتمى بصدرى من الموت الذى سقت إليه هـذه الألوف المؤلفة من المسلمين ؟ أهذه هى خاتمتك يا ابن الزبير ويا من جده أبو بكر ، ويا من جده عبد المطلب ؟

ولم يكن عبد الله يتوقع أن يسمع منها ما سمع فطفق ينظر مشدوهاً يودّ أن يصيح من الفرح لأنها رضيت له بالموت فى معمعان المعركة ، وذلك أقصى ما يريد ، ولـكنه لا يدرى إلى أىّ غاية ترمى فيكتم صيحته ويصمت ...

— مالك يا عبد الله ، أنسيت أمجاد أبيك الذى يجرى دمه فى عروقك . . . فتعال قرب أحدثك بأمجاد أبيك :

فى عشية من عشايا الاسلام الأول خرج أبوك من بيته هذا ، فتنكب طريق الحرم حيث تمثل قريش بجبروتها وشركها ، وأمّ هذه الجبال القريبة يحمل فى نفسه بهاء هذا الدين الجديد فهو يحب أن يفىء إليه وأن يستمتع بعزلة هانئة ، فلم تـكد تحتويه أعالى مكة حتى طرق أذنيه همس مرعب ارتجفت له أضلاعه ، واضطرب قلبه ، وأنساه غايته التى خرج من أجلها . لقد سمع أن محمداً قتل ، وانطفأت هذه الشعلة التى أضاءها الله ليقبس منها العالم ضياء نهار دائم ، وجفّ هذا الينبوع ووقف الاسلام الذى جاء للدنيا كلهـا من عند هؤلاء النفر القلائل الذين أسلموا ، وكان أبوك يعلم أن قريشاً التى قتلت محمداً ستمحو هؤلاء النفر وتبيدهم ، ولـكن أباك لم يخف ولم يفرّ بل ثارت فى نفسه حماسته ؛ وصرخ فى عروقه دمه الذى يحمله ميراث عصور طويلة من النبل والشرف ، وتوثب إيمانه فى صدره وأشعره أنه يقدر بهذا الإيمان على العالم كله ، فسلّ أبوك سيفه ورجع يريد أن يثأر لمحمد فإذا محمد صلى الله عليه وسلم حىّ يبلغ دعوة ربه

فكان أبوك أول من سل سيفه فى سبيل الله ، فسطع من سيفه الوميض الأول لهذا الصباح الذى غمر الكون بالضيـاء الذى أشرق من سيوف المسلمين فى بدر وهوازن والقادسية واليرموك ونهاوند ...

أفلا يهز حماستك حديث أبيك ؟

فلم يجب عبد الله ، وآثر أن يظل ساكتاً

فرجعت تقول :

— يا أسفى ، لم يعد يثيرك حديث أبيك ، فلن أحدثك عن أمجاده ... فهل تثير حماستك شجاعة جدتك صفية بنت عبد المطلب ؟ إنك تعرف حديثها ، وتروى خبرها مع حسان بن ثابت فى الحصن ... فهل أطفأت لذائذ الحياة لهيب الحماسة فى صدرك ، فأنت فى حاجة إلى قبس تقتبسه من امرأة ؟

فبرقت عينا الشيخ واشتعلت النار فى عروقه ، ولـكنه أزمع السكوت لتمضى العجوز فى حديثها ، فآلمها أنه ساكت لا يجيب ، وحسبت سكوته جبناً وهلعاً ، فراحت تبالغ فى تحميسه ... قالت :

— أخبرنى ... أنسيت ذلك الدم الزكى الذى أهريق على عتبات المجد ؟ سرعان ما نسيت صورة مصعب ابن أبيك ، ذلك الذى عاف الشباب والمال والرفاهية ، وجفا عقيلتى قريش ، عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين . وذهب ليموت شريفاً مجيداً تحت راية الخليفة عبد الله بن الزبير

إذا كنت تعلم أنك تدعو إلى باطل ، فلم فرطت

(١) هذه الجملة من التاريخ

بهذه الأرواح ... هذه الألوف من الأرواح التى زهقت فى سبيلك ؟ أكان جنى هذه المعارك النبيلة أن يحمل الخليفة الذين ماتوا تحت رايته ، ليزدان به موكب الحجاج ؟

ما كان جدك أبو بكر ولا كان أبوك الزبير جباناً ولا رعديداً ، أفتنتمى إلى هؤلاء الذين أترعوا التاريخ بأحاديث المكارم ثم ترضى أن تساق وأنت شيخ أبيض اللحية إلى دمشق ، ليلعب بك جبانها وليشيروا إليك بأصابعهم ، يقولون : هذا الذى كان

ولم يعد عبد الله يملك صبره ، فصرخ :

أماه ! كفى ... إننى جئت أودّعك ...

وألقى بنفسه بين ذراعيها ، فتحسسته فاذا هى بالدرع . قالت :

أتخدعنى يا عبد الله ؟ (ما هذا صنيع من يريد الموت [1])

قال : ما لبسته إلا لأجلك ، وما لى به من حاجة ...

ونزعه فألقاه ... ثم تملص من ذراعيها برفق :

— أماه ... وداعاً (ولا تدعى الدعاء لى ، فوالله ما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل محارمه ، وإنى مقتول فى يومى ، فلا يشتد حزنك وسلمى الأمر إلى الله ، فإن ابنك لم يتعمد إيثار منكر ، ولا عملاً بفاحشة ، ولم يجر فى حكم الله ، ولم يغدر فى أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم أو معاهد ، ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به ... اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسى ولكنى أقوله تعزية لأمى) [1]

وأسرع نخرج وأمه تدعو الله :

(اللهم ارحم طول ذلك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النحيب ، والظمأ فى هواجر مكة والمدينة وبره بأبيه وبى ، اللهم إنى قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت فأثبنى ثواب الصابرين الشاكرين)

وسكتت العجوز ، ومدت يديها تتلمس عبدالله لتودعه الوادع الأخير ، فلما أحست أنه قد ذهب ، ثارت أحزانها دفعة واحدة ، وهوت على الأرض

* * *

وأسدل الستار يوم الثلاثاء ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣ للهجرة على هذا الشاب الذى هجر مدرسته وصبيانه ، ونزل من الطائف وحيداً شريداً فمهدت له عبقريته سبيل المجد ، ووطّأت له أكناف العظمة ، فأعاد إلى الأمة الاسلامية وحدتها وسلامتها وبنى فى صرح أمجادها ركناً ضخما ، ما كان أعظمه وأزهاه لو لم يلطخ بدماء الأبرياء ... وهذا الشيخ البطل الذى سمت به نفسه حتى صارع الخليفة فى الشام ثم صارعه حتى سلبه ملكه وسلطانه . ثم خسر كل مارج ، ولكنه مات أشرف ميتة وأمجدها فكان موته مغلوباً ظفراً بارعاً ونصراً مؤزراً ... وهذه العجوز التى لم يعرف تاريخ بنات حواء من وقفت مثل موقفها أو ضحت مثل تضحيتها أو دانتها فى نبلها وشرف نفسها ، وإخلاصها لوطنها ودينها

رحمة الله على الجميع !

على الطنطاوى

(١) هذا هو النص التاريخى

منار الرشد

كتاب حديث يكشف عن أسرار الوجود ويشرح الحقائق ويرى القارئ الروح ويعرفه بالله لمؤلفه ابراهيم السيد بشارع كنيسة الراهبات نمرة ٣١ ويباع فى المكاتب الشهيرة